الفصل الخامس
الحركات السياسية في المشرق العربي
في العصر العثماني
بين التمرد والإصلاح الديني

- حركات التمرد بين الأطماع الشخصية والمساندة الإستعمارية .
- الحركات الإصلاحية ذات الطابع الإسلامي .

أوحت كثير من الأنظمة السياسية القومية العربية إلى مؤرّخيها أو كتّاب التاريخ فيها بضرورة تعميق الجذور القومية تاريخياً ووفقاً لمنظورها سواء أكان ذلك فى الإطار العربى العام أم فى الأطر الإقليمية المحلية المحدودة . وصدرت لهؤلاء الكتب المؤرّخين العديد من الدراسات التى سعت لتحقيق هذا الهدف من خلال تطويع وتشويه الأحداث التاريخية ، وساندتها هذه الأنظمة على ذيوع هذه الأفكار وانتشارها من جانب وفى فرض أطر شديدة من الالتزام على أية محاولات تخالف هذا الاتجاه أو تنقده من جانب آخر فضلاً عن الأطر التى أحاطت بالأنظمة التى تتعلق بالناحية المنهجية بل وبالعملية التعليمية والثقافية الأمر الذى جعل هذه الاتجاهات المأجورة أو المنقولة أو التابعة . بوعى وبغير وعى . تصل إلى درجة كونها من البديهيات والمسلمات .

وسبقت الإشارة إلى الدوافع التى جعلت هذه الأنظمة ومؤرخيها يعتبرون الوجود العثمانى فى المشرق العربى غزواً واحتلالاً ، وبالتالى فإن هؤلاء المؤرخين قد فسروا كافة حركات التمرد التى قامت فى المشرق العربى إبان الحكم العثمانى على أنها من قبيل العمل الوطنى وتعبيراً عن نمو الشعور القومى وبدايات اليقظة القومية والسعى للتحرر مما اعتبروه استعماراً ، فبدت حركة "على بك الكبير" فى مصر رمزاً من رموز اليقظة القومية وكذلك حركة "ظاهر العمر" و"أحمد الجزار" فى فلسطين وآل العظم فى الشام والمعنيون والشهابيون فى لبنان والقرمانليون فى ليبيا والحسينيون فى تونس والمماليك فى العراق وغير ذلك .

وإذا ما اتجه أى من هؤلاء المؤرخين إلى صياغة تاريخ العرب القومى بشكل عام جعلوا من كل هذه الحركات رمزاً لليقظة القومية العربية، والتقوا فى هذا بل اتبعوا المؤرخين الغربيين الذين اندفعوا إلى اتجاههم فى صياغة تاريخنا هادفين إلي إيجاد رصيد

تاريخي يسهم في إثارة النعرة القومية ويعمل علي تمزيق وحدة الشعوب الإسلامية . بل إن هؤلاء المؤرخين - أو كتبة التاريخ - قد فسروا الحركات الإصلاحية التى اعتمدت على الشريعة الإسلامية فى منهجها النظرى والحركى كالدعوة السلفية فى جزيرة العرب التى دعا إليها "الشيخ محمد بن عبد الوهاب" والدعوة السنوسية فى ليبيا والدعوة المهدية فى السودان على أنها حركات قومية أعادت دور الريادة الإسلامى للعرب بعد أن ضعف النظام العثمانى "التركى"(١) ، ولم يفطن أغلب هؤلاء إلى رفض الشريعة الإسلامية لأى إطار قومى من جهة ، كما أن أياً من دعاة هذه الحركات قد تركّز اعتراضه ضد العثمانيين على فساد الإدارة وممارسة الحكم فى حين لم يبد أى مفكر رفضه للخلافة كنظام أساسى إسلامى أو سعيه لضرب الوحدة الإسلامية بين كافة الشعوب الإسلامية دون النظر إلى جنسية الخليفة أو مقر الخلافة ، كما أن أياً من المتمردين أو المصلحين لم يسع لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته (٢) .

ويمكن أن تقسم هذه الحركات فى مجموعها إلى قسمين :

الأول : حركات تمرد أو عصيان .

الثانى : حركات تنشد الإصلاح علي أسس إسلامية .

أولاً : حركات التمرد أو العصيان

وتشمل حركة المعنيين والشهابيين فى لبنان ، و"على بك الكبير" فى مصر وآل العظم فى الشام ، و"ظاهر العمر" و"أحمد الجزّار" فى فلسطين ، والمماليك فى العراق والقرمانليين فى ليبيا ، والحسينيين فى تونس .

---

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص ١٠٥ .
(٢) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ١٠٩ .

وبشكل عام يمكن إرجاع دوافع هذه الحركات إلى ثلاثة عوامل رئيسية هى :

١- الأطماع الشخصية ببعدها الاقتصادى والسياسى .

٢- التحريض والمساندة لهذه الحركات من الدول الاستعمارية .

٣- ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثمانى .

وقبل أن نوضح هذه العوامل ينبغى أن نشير إلى بديهية أكدها بعض المؤرخين وهى أن الشعور القومى فى هذه الفترة كان غائباً تماماً وأن الإطار الإسلامى هو الذى كان مسيطراً وسائداً لكافة نواحى الحياة

أولاً : الأطمـــاع الشخصـية :

لم تكن حركة المعنيين فى لبنان ومن بعدهم الشهابيين تستند إلى مبادىء واضحة فى موقفهم المعادى للدولة العثمانية ، فكان نجاحهم فى بسط نفوذهم على ولاية طرابلس أو خارجها يرجع إلى انتهازهم فرصة انشغال العثمانيين فى مقاومة القوى الأوربية ، وقد دفعتهم أطماعهم إلى تخليهم عن المبادىء فادعى "فخر الدين المعنى الثانى" الإسلام لتقريب العناصر الإسلامية إليه ، ثم تقنع بقناع المسيحية لكسب ود العناصر والقوى المسيحية ، وهو ما يصفه البعض بالحنكة السياسية(١) . وسلك الأمير "بشير الشهابى الثانى" الذى تولى سنة ١٢٠٩هـ ١٧٩٥م نفس الأسلوب حيث استخدم الخديعة والحرب والمهادنة والهدايا ، وادعى أمام الموارنة (وهو من الدروز) اعتناقه للمسيحية كى يكسب تأييدهم لأطماعه(٢)

(١) د . رأفت غنيمى الشيخ : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص٦٧ .

ولم يكن " على بك الكبير " فى مصر ينتمى إلى العرب أو إلى المصريين أو حتى إلى المسلمين ، فقد جاء إلى مصر وعمره ثلاثة عشر عاماً كمملوك "لإبراهيم كتخدا " ، وهو ابن قسيس رومى أرثوذكسى من الأناضول واسمه "يوسف " ، اختطف وبيع فى القاهرة كمملوك . وحين كبر تزوج من فتاة يونانية مسيحية إسمها " مريم " أظهرت الإسلام وظلت فى الحقيقة محتفظة بدينها ، ولهذا فإن "على بك" قد ظهر بأكثر من إسم يتماشى مع مراتب تطوره فى خدمة سيده ثم مع أطماعه فعرف باسم " جن على " ثم باسم " بنو قبطان " ثم " على بك القازدغلى" ثم " على بك الكبير " (١) .

ومع أنه قد أبدى مهارة وذكاء أسهمت فى بروزه إلا أنه اتصف بعديد من الصفات الأخرى كالغدر والخيانة والخديعة وغير ذلك . ففى أعقاب وفاة سيده "إبراهيم كتخدا" ساعده ذكاؤه فى أن يحل محله ، وساعده كبير طائفة المماليك "القازدوغلية " عبد الرحمن كاهيا " فى تولى مشيخة البلد سنة ١١٧٤هـ ١٧٦٠م نكاية فى شيخها " على بك الغزاوى " الذى كان على رأس قافلة الحج ، وفور تولى "على بك" المشيخة أصدر فرماناً بنفى " عبد الرحمن كاهيا " إلى الحجاز ، فخرج إلى منفاه فى موكب حزين أثار غضب كل المصريين على شيخ البلد "على بك "(٢) .

وتبع ذلك استخدام "على بك" لأسلوب القتل والنفى والمطاردة ضد منافسيه مستعيناً برفاقه وأقرانه ، وحين تمكن نفوذه وقضى على منافسيه بدأ ينقلب على أقرانه(٣) . وقد وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال وأنها من

(١) المرجع السابق ص١٠٠ .
(٢) د . عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربى ص١٤٥ .
(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٠١ .

مبادىء ظهوره . ثم اتجه إلى القضاء على العربان فى الداخل كالحبايبة فى الوجه البحرى والهوارة فى الوجه القبلى .

واشتطت به أطماعه إلى حد التطلع إلى باشوية مصر فأبدى تودداً وتقرباً إلى الدولة العثمانية ، لكن السلطان العثمانى لم يوافق على ذلك حتى لا يفتح الباب لصراع المماليك على هذا المنصب فيما بعد ، ولما كان قد ورد إليه من تقارير عن "على بك" وكثيرين من مماليك مصر ، فضاق "على بك" بهذا الرفض وانتهز فرصة قيام حرب بين روسيا والدولة العثمانية وطرد الوالى من منصبه وحبسه وأعلن توليه الباشوية (١) . وحاول أن يحصل على اعتراف من السلطان العثمانى بمنصبه فأرسل العديد من الهدايا ولكن السلطان ظل على رفضه ، فأعلن "على بك" رفضه لأى باشا يعينه السلطان فى ولاية مصر وسك النقود باسمه ، وطرد كل من أبدى ميلاً للعثمانيين (٢) .

وانتهز "على بك" فرصة أخرى ليزيد من أطماعه حين طلب منه السلطان العثمانى التدخل لوقف الصراع على منصب شريف مكة فوجدها فرصة سانحة لضم الحجاز وطرد حاكم جدة المعين من قبل الدولة العثمانية (٣) . كما انتهز فرصة الحرب الروسية العثمانية وسعى - من خلال تحالفه مع الروس ومع "ظاهر العمر" - إلى ضم بلاد الشام ، وكاد أن يحقق ذلك لولا تمرد قائده " محمد بك أبو الدهب " الذى بدت أطماعه هو الأخر (٤) .

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ١ ص٣٩٩ .
(٢) الجبرتى : المرجع السابق ج٢ ص٢١٧ ، د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٠١ .
(٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٤٤ .
(٤) أرسل على بك رسالة إلى أهالى دمشق قبل شروع قواته فى دخولها استخدم فيها العامل الدينى لإثارة الناس ضد الوالى العثمانى عثمان بك دون أى إشارة إلى تمرده على السلطان العثمانى وهذا يؤكد سيادة العامل الدينى على غيره من العوامل د . عبد العزيز نوار : الوثائق السياسية ، ص١٣٦-١٣٧ .

وظهرت أسرة آل العظم فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بفعل عديد من العوامل أهمها ما ساد البلاد من فوضى بسبب الصراع بين العسكر واصطدام قوات الطامعين والمغامرين وضعف النواحى الاقتصادية . وعلى الرغم من إدراك الدولة العثمانية لحاجتها إلى عصبية قوية تقضى على هذه المظاهر وبالتالى تهيأت الفرصة لآل العظم ، إلا أن آل العظم قد عملوا لمصلحتهم أكثر من سعيهم لتأمين مصلحة الدولة العثمانية وظللوا يوسعون إمارتهم حتى اصطدموا بتحالف " على بك الكبير" و " ظاهر العمر " الذى قضى عليهم سنة ١١٨٢هـ /١٧٧١م . ثم عادوا للولاية فترة وجيزة قضى عليهم بعدها " أحمد الجزار " والى عكا سنة ١٢٠٤هـ /١٧٩٠م .

أما "ظاهر العمر" فهو عربى الأصل استطاع أن يحصل على التزام منطقة طبرية فى فلسطين من باشا صيدا سنة ١١٤٧هـ ١٧٣٣م وأثبت قدرته على الإدارة فيها ، ثم تطلع إلى التوسع فاستخدم أسلوب الملاطفة والمسالمة أحياناً والاحتيال والتهديد أحياناً أخرى حتى تمكن من ضم التزام صفد سنة ١١٥٣هـ ١٧٣٩م (١) . ثم اصطدم مع بعض عناصر الشيعة " المتاولة " لرفضهم التنازل له عن الالتزام فى بلادهم ، واستخدم أسلوب الخديعة والمكر حتى أخذ بلادهم سنة ١١٥٦هـ ١٧٤٢م واستصدر بها موافقة من باشا صيدا .

وحين استشعر "ظاهر" القوة تطلع إلى التزام مدينة عكا ، وكان رفض باشا صيدا إعطائها له نذيراً بالصدام مع الدولة العثمانية ، فدخلها عنوة سنة ١١٥٨هـ/ ١٧٤٤م وطرد الباشا العثمانى منها واتخذها عاصمة له ، وانطلق منها ليستولى على الناصرة وحيفا . ودفعته رغبته فى مزيد من التوسع إلى الصدام مع آل العظم فى الشام ، ومع باشا صيدا نفسه فهاجم صيدا واستولى عليها . وأعطاه السلطان العثمانى فرماناً بولاية صيدا وما

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٧٧ .

جاورها للظروف التى كانت تمر بها الدولة العثمانية ، ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يتوسع فى المناطق المجاورة حيث ضم القدس والخليل ويافا .

وقد كان ذلك الدور مستفزاً للدولة العثمانية وبخاصة أنها كانت فى حالة حرب مع روسيا وفى حاجة إلى عون لا إلى تمرد ، وأدرك ظاهر العمر أن العثمانيين لن يتركوا أمره دون رادع ، فلم يجد أمامه ، استعداداً لموقف الصدام مع الدولة العثمانية ، إلا أن يتحالف مع متمرد آخر هو "على بك الكبير" فى مصر. ومع أن على بك قد أرسل جيشاً لنجدته إلا أن تمرد قائد الجيش "محمد بك أبو الدهب" على سيده وظهور أطماعه الشخصية ، قد ساعدت القوات العثمانية على مواجهة " ظاهر " منفرداً فهزمته ، وقتله أحد حراسة سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م . وبخاصة بعد أن أنهت الدولة حربها مع روسيا التى كانت تسانده .

وشهدت تونس تسلط أسرة " حسين بن على " حيث تودد حسين إلى أهل البلاد حتى نادوا به " بايا " على تونس سنة ١١١٩هـ ١٧٠٥م ، ثم أعلن تمرده على الدولة العثمانية سعياً لجعل حكمه وراثياً ، وظلت أسرته محتفظة بالحكم حتى فى ظل الاحتلال الفرنسى وحتى سنة ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م .

وفى ليبيا شهد مطلع القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كذلك حالة من الفوضى سمحت بظهور الكثيرين من الطامعين والمغامرين حتى نجح " أحمد القرمانلى " فى الوصول إلى منصب والى طرابلس سنة ١١٢٥هـ ١٧١١م . وقد حقق نجاحاً آخر فى التخلص من منافسيه من جند الإنكشارية حيث أعد لهم مأدبة ذبحهم بعدها كالتى قام بها محمد على والى مصر بعد ذلك للمماليك . وقد استعان القرمانلى فى البداية بأعيان طرابلس ، ثم عاد وأهملهم بعد أن حقق أطماعه فى الولاية والتخلص من خصومه .

ومن الملاحظ أن أغلب حركات التمرد فى الولايات العربية قد ظهرت فى القرن الثانى عشر الهجرى القرن الثامن عشر الميلادى ، ولا شك أن ذلك يرجع إلى سلسلة الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا وعلى الساحة الأوربية ، وكذلك أطماع الصفويين الشيعة ، وهو أمر أسهم فى مزيد من انشغالها وضعف قبضتها على هذه الولايات علاوة على تدهور إمكاناتها الاقتصادية ، ويبدو ذلك جلياً فى تسليم الدولة فى الغالب بسلطة المغامرين والاعتراف بهم .

كما يلاحظ كذلك أنه على الرغم من تحالف بعض الطامعين المتمردين مع بعضهم ضد دولة الخلافة أو ضد بعضهم إذا ما اصطدمت مصالحهم وأطماعهم إلا أنهم سرعان ما كانوا يصطدمون ببعضهم لينهى كل منهم الآخر ، ويبدو هذا من صدام والى عكا " أحمد الجزار " مع " بشير الشهابى الثانى " و " على بك " ضد " محمد أبو الذهب " وآل العظم مع " ظاهر العمر " ، وتشير هذه الظاهرة إلى أن أياً منهم لم يكن يتمتع برصيد شعبى ولا يعبر عن مطالب شعبية بقدر ما كانت تحركه مصالحه وأطماعه الشخصية ، ولم يفلح فى أن يوجد فئة ترتبط مصالحها بمصالحه فتؤيده .

ثانياً : دور الدول الأوربية فى مساندة حركات التمرد وتشجيع قيامها

أسهمت الصراعات بين الدول الاستعمارية الغربية فى العودة إلى إحياء طرق التجارة القديمة عبر الأراضى الإسلامية ، وبالتالى استعادت المنطقة العربية نسبة كبيرة من حيويتها التجارية التى كانت تحتلها قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن إلى جانب ذلك ازدادت تطلعات هذه الدول لبسط نفوذها على المناطق المتحكمة فى طرق التجارة ، وشهدت المنطقة جهوداً من تسابق هذه الدول وتنافسها وبخاصة بين انجلترا

وفرنسا ، وأصبحت المنطقة ميداناً للصراع خلال القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

وبصفة عامة فقد اتسمت سياسة الدول الغربية تجاه المنطقة العربية ، وتجاه الدولة العثمانية بشكل عام ، بروح عدائية ذات طابع دينى ، إلى جانب البعد الاقتصادى وهو عامل أساسى ، لا تقل عن الروح التى سادت الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية . وما كانت مساندة إحدى هاتين الدولتين للدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا أحياناً إلا حرصاً منها - كل وفق سياسته ومصالحه - على إبعاد روسيا عن ميدان الصراع الاستعمارى فى حين كانتا تبديان تعاطفاً مع روسيا إذا ما نجحت فى اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية بعيدة عن البحار الدافئة التى كانت تعنى بالنسبة لهما المشاركة فى الميدان الاستعمارى الاقتصادى .

وبقدر غياب الوعى القومى إبان القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى الذى شهد أغلب حركات التمرد ضد الدولة العثمانية وأن المفهوم الإسلامى هو المفهوم الذى كان سائداً لدى جماهير المسلمين وفى المشرق العربى على وجه الخصوص ، فإن هذه الحركات لم تكن تستند إلى تأييد شعبى فى موقفها من دولة الخلافة . ومن هنا التقت فى أطماعها السياسية ومصالحها الإقتصادية مع الأهداف الاقتصادية الاستعمارية والصليبية للدول الغربية ، ولقيت منها المساندة على تحقيق هذه الأهداف التى كانت ترمى من قبل الدول الغربية إلى إضعاف العالم الإسلامى وتفتيته إلى قوميات متعددة يمكن تحقيق المصالح الاقتصادية من خلالها ، بل إن الكثير من هذه الحركات قد ووجهت بمقاومة شعبية من قبل شعوبها حين بدأ أمام هذه الشعوب ما كانوا عليه من تحالف وتأييد ومناصرة للدول الاستعمارية ومعاداة لدولة الخلافة ، ومثال ذلك ما حدث لحركة

على بك الكبير فى مصر حين اصطدم به قائده " محمد بك أبو الذهب " وفر إلى صعيد مصر وأوضح أبوالذهب إلى الهوارة ، وغيرهم من المصريين ، ما كان عليه سيده من عداء مع خليفة المسلمين وتحالفه مع دولة كافرة فى حالة حرب مع دولة الخلافة وهى روسيا فانضم إليه الهوارة وجموع من المواطنين ، وكان هذا أول اشتراك لعناصر مصرية فى هذه الحركات ، وأعلنوا تصديهم لموقف على بك الأمر الذى أسهم فى هزيمته وانتهاء حركته فضلاً عما يوحى به هذا الصراع من بعد اقتصادى واجتماعى فى المقام الثانى .

أما عن دور الدول الغربية فى مساندة هذه الحركات فقد حصل " فخر الدين المعنى الثانى " على معونة من دوق تسكانيا فى إيطاليا ومن كل من أسبانيا وفرنسا وفرسان القديس يوحنا ، وأرسل " فخر الدين " العديد من الدروز لتلقى العلم فى إيطاليا كما قام بالاتصال بالشاه "عباس الأول" الصفوى والتنسيق بينه وبين الأوربيين (١) . وإذا جاز أن نقبل تفسير البعض بأن الهدف من ذلك كان قاصراً على أهداف اقتصادية فإن التفسير الغالب هو غلبة الأهداف الدينية التى كانت تعبر عن العداء للمسلمين ولدولة الخلافة العثمانية وبخاصة من أسبانيا وإيطاليا وفرسان القديس يوحنا التى لم يكن لها فى تلك الفترة أهداف اقتصادية واضحة فى المنطقة (٢) .

وقد سمح " فخر الدين " ببناء العديد من الأديرة والكنائس ، وقام بتمويل عملية البناء بنفسه وهو أمر جعل أحد الرحالة الإنجليز الذى زار لبنان سنة ١٠٢٧هـ- ١٦١٠م بأن يراه مسيحياً وأن إظهاره لإسلامه كان صورياً أمام العثمانيين فى حين كان لا يبدو فى

(١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٦٩ .
(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص٧٥ .

سلوكه أى حرص على الشعائر الإسلامية ، وهو أمر دعاه لأن يطلب من البابا أن يأمر مسيحيى لبنان من الموارنة بمعاونته(١) .

ووطد الأمير "بشير الشهابى الثانى" علاقته بفرنسا ، والإكليروس الفرنسى الإيطالى حتى جاء حكم والى مصر للشام فى عهد "محمد على" فضيق على المسلمين وسمح ببناء الأديرة والمدارس والإرساليات التبشيرية المسيحية الأمر الذى هيأ لحدوث صراع بين الدروز والموارنة ونتج عنه مذابح بين المسلمين والنصارى سنة ١٢٧٦هـ ١٨٦٠م .

وقد لعبت فرنسا دوراً واضحاً فى حدوث هذه المذابح لتوجد مبرراً لتدخلها العسكرى فى لبنان ، ولولا الضغوط الاستعمارية لاستمر الاستعمار الفرنسى . لكن فرنسا حرصت على تمكين الموارنة المسيحيين من الحكم خلال فترة وجودها. وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم مسيحى يساعده مجلس إدارى يمثل بقية الطوائف (٢) وما زالت فرنسا تمثل الحليف التقليدى لهذه الأقلية ومن منطلق دينى حتى تاريخنا المعاصر (٣) .

وقامت روسيا باتصال بكل من " على بك الكبير" فى مصر" وظاهر العمر" فى فلسطين أثناء حربهما مع الدولة العثمانية ، وقد دفعتهما أطماعهما الشخصية لسرعة الاستجابة لهذه الاتصالات وبخاصة بعد أن هزم الأسطول الروسى الأسطول العثمانى سنة ١١٨٤هـ ١٧٧٠م (٤) . وعقدت روسيا معهم بعض الاتفاقيات السرية ضمن الروس

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص١٧٦ ، د . عمر عبد العزيز: المرجع السابق ص١٧٢ ، وعن استخدام دوق تسكانا لفخر الدين المعنى الثانى كورقة للضغط على الباب العالى أنظر : د . عبد العزيز نوار : وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧-١٩٢٠م ، لبنان سنة ١٩٧٤م ، ص٥١ ، ٥٤ ، ٦٦، ٧٤ حيث ورد نص مشروع عقد معاهدة بين الأمير فخر الدين المعنى الثانى وتسكانيا والبابوية أواخر سنة ١٦٣٤م .

(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٦٩ .

(٣) برنارد لويس : المرجع السابق ص٩٣ .

(٤) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٨٢ .

بمقتضاها أماكن لإمداد أسطولهم فى البحر المتوسط لقاء ما وعدت به من مساعدات مادية وعسكرية لـ"على بك" وحليفه "ظاهر العمر" . وقد وعد " على بك " وحليفه بإعطاء الروس بعض المدن العربية نظير مساعدتهما على تحقيق أطماعهم (١) ، وهذا يؤكد الأبعاد الاقتصادية للدور الروسى وللدول التى نافسته مثل انجلترَ وفرنسا .

على أن هدف الروس من هذه الاتفاقيات لم يكن قاصراً على هذا الهدف المحدود وإنما أرادوا أن يحرموا دولة الخلافة من مساعدات ولاتها فى الحرب وبخاصة والى مصر وقد التقت أهداف الروس مع أطماع " على بك " و " ظاهر العمر " فجهزَ جيشاً بقيادة "محمد بك أبو الذهب " . وبمساندة قائد الأسطول الروسى " الكسيس أورلوف " من البحر للسيطرة على بلاد الشام (٢) ، وتمكن هذا الجيش من احتلال الشام وطرد حاكمها العثمانى (٣) ، إلا أن " أبو الذهب " قد عاد دون استكمال السيطرة عل الشام منقلباً على سيده ، ولا يستبعد أن يكون موقف "أبو الذهب" نابعاً من ظهور أطماع شخصية له وجد أن الوقت مناسب لتحقيقها ، وربما يكون العثمانيون قد اتصلوا به ووعدوه بالولاية إذا ما قضى على " على بك " .

ولا شك أن نمو الدور الروسى الاقتصادى والسياسى فى شرقى البحر المتوسط قد أثار قلق الإنجليز ، ولا يستبعد أن يكونوا قد لعبوا دوراً فى إثارة عصيان " محمد بك أبو الذهب " على " على بك " . وكان " على بك " يدرك ما كان عليه الإنجليز من قوة فى البحر ، ولذلك قبل التفاهم معهم ، وقامت مباحثات بينهما عن طريق " جيمس بروس "

---

(١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٤٨ ، وكانت هناك اتصالات بين ظاهر العمر وكل من فرنسا وفرسان القديس يوحنا فى مالطة . د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٨٠ .

(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص١٦٥

(٣) د . عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث ، ص٥٣ .

القنصل البريطانى فى الجزائر، وأسفرت هذه المباحثات عن عقد اتفاقية بينهما سنة ١١٨٧هـ - ١٧٧٣م فتح بمقتضاها " على بك " مرفأ السويس للمراكب البريطانية التى تحمل بضائع من الهند إلى موانىء البحر الأحمر، وأصبح العلم البريطانى أول الأعلام التى ظهرت فى البحر الأحمر بعد جهود العثمانيين فى الحفاظ عليه كبحيرة إسلامية منذ بداية القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى (١).

وكان الإنجليز قد شجعوا " على بك " على القيام بحملة على الحجاز منتهزاً فرصة الصراع هناك على منصب الشريف، فقد شجعه " رينى " على مشروعه الرامى إلى فتح البحر الأحمر للتجارة الأوربية القادمة من الشرق، وحين نجحت الحملة ١١٨٤هـ (١٧٧٠م) فى الإستيلاء على الحجاز أوكل " على بك " إدارة جمارك جدة إلى " بلتازار " أحد إخوة " رينى "، وأصبح للإنجليز نفوذ تجارى واضح وصل إلى حد مطالبة تجارهم بإنشاء خط مباشر بين الهند ومرفأ السويس وهو الأمر الذى استجاب له " على بك " مما جعل هؤلاء التجار ينشئون شركة كلكتا سنة ١١٨٧هـ ١٧٧٣م للمتاجرة مع مصر (٢)..

ومما يشير إلى حدوث اتصالات بين " محمد بك أبو الذهب " والإنجليز أن الإنجليز لم يتحركوا لنجدة " على بك " حين قضى عليه " أبو الذهب "، كما أن "أبو الذهب" لم يرفض سريان الاتفاقية التى كان قد عقدها معهم " على بك " وبالتالى لم يشكل خطراً على مصالحهم الاقتصادية.

كما ارتبط سقوط " ظاهر العمر " بانتهاء الحرب الروسية العثمانية وتوقيع اتفاقية " كتشك فينارجا " بينهما سنة ١١٨٨هـ ١٧٧٤م الأمر الذى يؤكد اعتماد هؤلاء

(١) د. عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص١٩٥، ١٩٦.
(٢) على معتوق عبد الله القط: الحجاز فى القرن الثامن عشر - رسالة ماجستير غير منشورة - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة سنة ١٩٦٩م، ص٥٠-٥٣.

المتمردين على مساندة الدول الأجنبية فى تحقيق أطماعهم الشخصية ، وكذلك غلبة العوامل الاقتصادية على ماسواها فى هذه الفترة .

وكان استمرار الأطماع الصفوية الاقتصادية والسياسية فى العراق سبباً فى تحولها إلى ميدان صراع بينهم وبين العثمانيين ، وفى تهيئة الظروف لظهور العديد من المغامرين والطامعين فى حكمها وبخاصة بعد ظهور الولاة المماليك . وبعد أن تمكنت الدول الأوربية من التسلل إليها وتكوين مراكز نفوذ لها حول أنهار العراق وبخاصة فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى استعان الكثيرين من هؤلاء الولاة بالدول الغربية وبخاصة انجلترَ التى كانت أكثر الدول الغربية نفوذاً فى هذه المنطقة منذ أن أنشأت شركة الهند الشرقية وكالة لها بالبصرة سنة ١٠٥١هـ ١٦٤٣م (١) .

وقد استعان أشهر الولاة المماليك فى العراق وهو " سليمان باشا الكبير " بالنفوذ البريطانى ، حيث ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية فى تولى باشوية بغداد سنة ١١٩٤ـ ١٢١٦هـ / ١٧٨٠ـ ١٨٠٢م ، كما أمدته بالسلاح والعتاد وأرسلت له مجموعة من المدربين العسكريين الإنجليز لتدريب جيشه ، وفى مقابل ذلك قدم العديد من التسهيلات لهذه الشركة فى مزاولة نشاط اقتصادى واسع داخل العراق ، كما أبدى حرصا ورعاية شديدة على نشاطها(٢) .

وقام " داود باشا " ١٢٣١- ١٢٤٦هـ / ١٨١٦- ١٨٣١م بتوسيع دائرة اتصاله بالأوربيين ففتح لهم ميدان النشاط التجارى بشكل زاد عن ذى قبل . وبخاصة بعد فتور العلاقة بينه وبين الإنجليز ، وفتح إلى جانب ذلك الباب للراهبات الفرنسيات والإيطاليات

(١)د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٦٧ .
(٢)د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٨٣ ، ٨٤ .

لمزاولة نشاط تبشيرى واسع داخل العراق ، كما استعان بمدربين فرنسيين للإسهام فى تدريب جيشه الذى كان يعده لمناوأة دولة الخلافة العثمانية ، ولكن السلطان " محمود الثانى " تمكن من القضاء عليه (١) .

ثالثاً : ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثمانى :

تراكمت العديد من العوامل لتصيب النظام العام فى الدولة العثمانية بحالة من المتدهور والضعف ، ولا شك أن هذه العوامل ترجع فى المقام الأول إلى الدور الذى لعبته هذه الدولة على مسرح الأحداث الدولية أكثر مما ترجع إلى طبيعة النظام فيها كما يرى البعض فقد نصبت هذه الدولة من نفسها القوة المدافعة عن العالم الإسلامى تجاه الغرب المسيحى وفرض عليها هذا الدور مهام توسعية ثم دفاعية فى عديد من الجهات حيث كان عليها الحفاظ على توسعاتها ومكاسبها على الساحة الأوربية ، ثم مقاومة الأطماع الصفوية فى إيران ، وتمثل هذا الدور فى الوقوف أمام الأهداف الصليبية البرتغالية تجاه المناطق المقدسة الإسلامية طوال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى الأمر الذى أدى إلى إغلاقها للبحر الأحمر فى وجه السفن الأوربية ، وكذلك مقاومة دور فرسان القديس يوحنا المدعوم من الدول الأوربية على ساحة البحر المتوسط ، ومحاولة مساعدة بقايا مسلمى الأندلس ، وفوق ذلك مقاومة الأطماع الروسية بعد أن اعتبرت روسيا **نفسها وريثة للإمبراطورية البيزنطية** (٢) .

وفى الوقت الذى كان الأمر يتطلب فيه من السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بقوات عسكرية على كل هذه الجبهات ، البحر المتوسط وبحر العرب والمنطقة المسماه

---

(١) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٦٩ .
(٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص١٦٤

بالقرن الإفريقى والجبهة العثمانية مع أوروبا والجبهة الشمالية مع روسيا والجبهة الشرقية مع الدولة الصفوية ، أصيبت الدولة بتدهور اقتصادى شديد شمل أغلب ولاياتها بفعل تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، بل إن الأمر قد ازداد سوءاً بالنسبة للعثمانيين بسبب الآثار الناجمة عن التدهور الاقتصادى حيث أسهم فى قيام العديد من حركات التمرد والعصيان الداخلية ، وقد تطلب ذلك جهد عسكرياً من أجل مقاومة هذه الحركات ، وترتب على ذلك بالطبع المزيد من النفقات سواء لتجهيز القوات العسكرية أو ما تتطلبته بعض محاولات الإصلاح داخل هذه الولايات .

وترتب على توسع العثمانيين فى زيادة عدد من الجنود الإنكشارية لمواجهة هذه المهام ، وهو أمر أدى إلى صبغ الدور العثمانى بالصبغة العسكرية ، أن أصبحت هذه القوات من أبرز مراكز القوى التى قوضت الكثير من حركات الإصلاح ، برغم الدور الذى لعبته هذه القوات فى توسيع رقعة الدولة وفرض مهابتها . واستغلت هذه القوات فرصة وجود بعض السلاطين الضعاف ليفرضوا نفوذاً وسيطرة على سياسة الدولة فأبدوا عدم الإكتراث بقوانين الدولة ، وتحكموا فى تعيين بعض السلاطين وكذلك وظيفة الصدر الأعظم أو عزلهم وقتلهم فى بعض الفترات (١) ، ولم تفلح جهود كثيرين من السلاطين للحد من سطوتهم برغم القيام بتوزيع فيالقهم على الحدود كنوع من محاولة تمزيق قوتهم (٢) .

وعلى الرغم من وجود ارتباط وثيق بين فيالق الإنكشارية وبين الطريقة البكتاشية إلا أن إحساس بعض قادة الإنكشارية بجذورهم المسيحية التى سعت لإثارتها عناصر أوربية بينهم قد جعلهم يتحولون فى بعض الأحيان إلى عامل هدم للنظام الإسلامى

(١) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية جـ١ ص٤٩٨ .
(٢) المرجع السابق ص٥٠٠

العثمانى والسعى لتشويهه وتشويه القوانين التى ظلت على طابعها الإسلامى طوال التاريخ العثمانى ، وكان ذلك الأمر وراء قيام "السلطان مراد الثالث" سنة ٩٨١-١٠٠٢هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥م بتجنيد أعداد وفيرة من المسلمين الأحرار (من أب وأم مسلمين) وإدخالهم فى الفيالق الإنكشارية ، وقد طالب المجندون المسلمون الجدد بإلغاء الحظر الذى كان مفروضاً على جنود الإنكشارية بالزواج ، ووافق السلطان على ذلك ، مما أدى إلى إنشغال الإنكشارية بالحياة العامة بدلاً من التركيز على الحياة العسكرية ، والإنشغال بالعديد من الحرف والأعمال التجارية وإن كان ذلك قد جعلهم يستمرون كمصدر إضعاف للدولة حيث ضعف دورهم العسكرى من جهة وفرضوا العديد من الإلتزامات المالية التى زادت من إرهاق ميزانية الدولة من جهة أخر ، حتى نجح السلطان "محمود الثانى" فى القضاء عليهم سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٦م (١) .

ومن هنا لا يمكن أن نحمّل العثمانيين وحدهم تبعة ما ألم بالولايات ، والولايات العربية على وجه الخصوص ، من ضعف وتدهور . ولا ينبغى أن نسىء إلى دورهم فى الحفاظ على مقومات الترابط والوحدة بين هذه الولايات بأنها قد احتفظت بقوات عسكرية عثمانية فيها (٢) ، وهو أمر طبيعى ، ونفسر ذلك بأنه قد أثار الإحساس بالضعف وعدم القدرة على الحماية العسكرية لدى العناصر العربية بالارتباط بالخلافة العثمانية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

كما أن حرص الدولة العثمانية على جمع الأموال الأميرية كان أمراً طبيعياً لا بحكم كونها دولة مسيطرة أو محتلة وإنما بحكم تطبيقها لقوانين مستمدة من الشريعة

---

(١) المرجع السابق ص٥٥٢ .
(٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٥٢ وما بعدها .

الإسلامية حرصت على الحفاظ عليها طوال مدة بقائها . وإذا كانت بعض التجاوزات فى هذا الشأن قد تخللت الأسلوب العثمانى ويفعل العديد من الظروف فإننا لا ينبغى أن ننساق وراء السعى لتعميم ذلك على كل الفترة العثمانية . فعلى سبيل المثال إذا كان العثمانيون قد أخذوا بنظام الالتزام فإنهم لم يكونوا أول من أوجده على الساحة المصرية أو فى بلاد الشام أو فى غيرهما ، كما أنهم لم يلجأوا إليه بشكل مسىء إلا فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بسبب توالى الحروب التى خاضتها الدولة على الساحة الأوربية وضد روسيا على وجه الخصوص .

ومما لا شك فيه أن هذه الظروف التى مرت بها الدولة قد أسهمت فى إهمالها للعديد من جوانب الإصلاح الداخلى مما أدى إلى المساعدة على قيام العديد من حركات التمرد والعصيان التى كانت نتيجة وسبباً لضعف قبضة الدولة العثمانية عل ولاياتها وسمحت تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الولايات بظهور المغامرين والطامعين فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه أطماع الدول الاستعمارية بشكل مكثف فى المنطقة العربية ، فشجعت الدول الاستعمارية هذه الأطماع بشكل تكتيكى يتناسب مع ظهور الدول القومية وتنافسها وبهدف تمزيق القوى الإسلامية ، ثم ساعدوا عل ظهور الشعور القومى من خلال بعض الفئات الاجتماعية من أصحاب المصالح الاقتصادية والذى لم يكن يتناسب مع ظروف العالم الإسلامى استكمالاً لهذا الهدف ، وبعد أن تحقق هذا انفردت الدول الأوربية بالبلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى من خلال أصحاب المصالح فيها وهى مرحلة تعرف فى التاريخ باسم المسألة الشرقية التى سبقت مرحلة وقوع الوطن العربى تحت الاحتلال الأوربى .

على أن هذه الفترة قد شهدت قدراً من دعم الظلم الاجتماعى من قبل المؤسسة العثمانية الحاكمة من خلال دعمها للإقطاع ، وبدا الارتباط بين ذلك الدعم وبين اعتمادها على المبادىء الإسلامية ، فكررت الصورة التى ثارت عليها أوربا وهى ارتباط الدين بالظلم الاجتماعى مما كان أساساً يستوجب الثورة عليهما معاً . وإذا جاز التفريق بين التعاليم الكنسية والمبادىء الإسلامية . وهذا واضح . فإن النظام العثمانى فى هذه الفترة قد قدم نموذجاً لا يساعد على هذا التفريق .

ثانياً : الحركات الإصلاحية الإسلامية :

شهدت المنطقة العربية قيام ثورات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى من أبرزها الدعوة السلفية فى جزيرة العرب التى دعا إليها الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" والدعوة السنوسية فى برقة بليبيا ، والدعوة المهدية فى السودان .

ومع أن قيام هذه الدعوات قد واكب قيام بعض حركات التمرد والعصيان ضد الدولة العثمانية ، وأن بعض هذه الدعوات قد اصطدم بدولة الخلافة وهى الدعوة السلفية إلا انه ليس من الصواب إضفاء الصفة القومية على أى من هذه الدعوات سبباً أو نتيجة وذلك لغياب الوعى القومى من جانب ولرفض المنهج الإسلامى الذى ارتكزت عليه هذه الدعوات لأى إطار قومى سواء فى فكر دعاتهم أم فى مسيرتها التطبقية من جانب آخر بل إن مراحل كفاح الدعوة السلفية فى أعقاب النجاح الذى حققته داخل الجزيرة العربية وخارجها كان يتمثل فى مقاومة الأطماع الشخصية التى دعمها الاستعمار الأوربى والتى سعت لإرساء المنظور القومى فى المنطقة والذى يتمثل فى دور "محمد على" (١) . كما أن

(١) د.عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق ص١٠٤ وقد اعتبرها يقظة للوعى القومى

الزوايا السنوسية لم يقتصر انتشارها على المنطقة العربية بل شملت تركيا وفارس والهند وكانت جميعها متصلة بالزوايا الأم فى واحة جغبوب على الحدود المصرية الليبية وبزعامة مؤسس الدعوة "محمد بن على السنوسى" الجزائرى المولد (١) .

وعلى الرغم من ارتباط هذه الدعوات بعوامل بيئية محلية فى بداية ظهورها أو فى مراحل تطورها إلا أن الدعوة السلفية فى جزيرة العرب قد خرجت بمبادئها وأهدافها عن هذه الحدود وذلك لعاملين أساسيين أولهما وحدة العوامل البيئية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية فى الغالب . فى المنطقة العربية والإسلامية وعدم قدرة العثمانيين على الإصلاح فى هذا الجانب ، والعامل الثانى يتمثل فى نجاح قوات الدولة السعودية الأولى التى آمنت بهذه الدعوة وسعت لنصرتها فى السيطرة على منطقة الحجاز وبث الدعوة بين وفود الحجيج من المسلمين مما أدى إلى قيام بعضهم بنشر مبادئها فى بلاده . بل إن تأثر صاحب الدعوة السنوسية بمبادىء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإيمانه بها كانت دافعاً لقيام دعوته ونجاحها ، ولولا اعتماده على الزوايا الصوفية لأمكن القول بأن دعوته هى امتداد طبيعى للدعوة السلفية . وقد أصاب البعض فى وصف هذه الدعوات بأنها " جاءت ببعث دينى كان له أثر كبير فى أقطار عدة ساعد على حقن هذه الأقطار بمصل جديد للكفاح وعزم أقوى على جهاد ومقارعة الأوربيين الغزاة" (٢) .

ولم تثر الدعوة السلفية فى مراحلها الأولى فى نجد حفيظة الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الأوربية التى استشرى نفوذها فى الخليج العربى وذلك لأن إقليم نجد الداخلى لم يكن تابعاً للدولة العثمانية إلا من الناحية الإسمية ، وظل الإقليم طوال فترة

(١) أنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى - دار الاعصام - القاهرة ١٩٧٨م ، ص٦٧ ، ٦٨ .
(٢) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص١٥٤ .

الوجود العثمانى تحكمه قبائله بطريقتهم التقليدية المتوارثة دون تدخل من الدولة فى شئون هذه القبائل وبخاصة أن النظام العام الذى اتبعته الدولةالعثمانية فى كل ولاياتهاهوترك الأقاليم التابعة لها للقوى المحلية(١). واتجهت عنايتها إلى أطراف ذلك الإقليم فى الحجاز والبحر الأحمر من ناحية الغرب وفى الإحساء وساحل الخليج العربى من الجهة الشرقية ، وذلك لحماية المنطقة من غارات الدولة الأوربية ولما تمثله من أهمية اقتصادية ، وانصبت عنايتها على منطقة الحجاز التى كانت أساساً فى صبغ دورها ووجودها بالصبغة الإسلامية وفى احتفاظ سلاطينها بمنصب الخلافة الذى أكسبهم شرعية ومهابة لدى كافة الشعوب الإسلامية ، ولهذا أوقفت الأوقاف والصدقات والهبات على سكان الحرمين الشريفين . كما حظيت مكة والمدينة ببعض النواحى الإصلاحية دون باقى مناطق الجزيرة العربية الأمر الذى أسهم فى تخلفها وضعفها وجعلها مكاناً مهيأ لتقبل أية ثورة إصلاحية ومساندتها .

على أن تطور الدعوة السلفية ممثلاً فى دور الدولة السعودية الأولى ووصولها إلى الحدود الشرقية فى الخليج العربى وانتشار مبادئها بين قبائل هذه المنطقة ، كأهل قطر الذين استدعوا ممثلين عن الدولة السعودية سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م . وكذلك أهل البريمى وتحالف القواسم مع السعوديين سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م بعد اقتناعهم بدعوتهم ، كان ذلك سبباً فى توتر علاقة الدولة السعودية بالإنجليز ، وبخاصة بعد أن أدى تحالف القواسم مع آل سعود إلى تقوية دورهم فى الجهاد البحرى ضد النفوذ الأوربى ، والإنجليزى على وجه الخصوص والذين وصفوا هذا الدور بالقرصنة ، فى الخليج العربى (٢) .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٢٣ .
(٢) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص٥٨ ، ٥٩ ، ٩٧ . ، د سليمان الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية ص٣٤ .

وإذا كان نجاح أتباع الدعوة السلفية فى السيطرة على إقليم الحجاز بما فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة سبباً فى إثارة الدولة العثمانية عليهم حيث أدرك العثمانيون أن فقدهم للأماكن المقدسة سيفقدهم مكانتهم الإسلامية (١) ، ببعدها الدينى والاقتصادى فإن السعوديين قد أبدوا حرصاً على إظهار الولاء للخلافة العثمانية مع المطالبة بالقضاء على المظاهر المخالفة للشرع فور دخولهم الحجاز، فعندما دخل " سعود بن عبد العزيز" مكة المكرمة أرسل إلى السلطان " سليم الثالث " رسالة جاء فيها : " فقد دخلت مكة المكرمة فى اليوم الرابع من محرم عام ١٢١٨هـ والموافق ٢٥ / إبريل سنة ١٨٠٣م .. وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد ما هدمت ما هناك من أشياء وثنية وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً ، وثبت الوالى الذى وليته أنت طبقاً للشرع ، فعليك أن تمنع والى دمشق والقاهرة من المجىء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس فإن ذلك ليس من الدين فى شىء وعليك رحمة الله وبركاته .. " (٢) .

على أن الوجود السعودى على البحر الأحمر قد أثار بريطانيا فى المقام الأول وبخاصة بعد أن بدت ملامح استعادة الطريق التجارى القديم عبر البحر الأحمر أهميته فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى ، وقد بدا ذلك واضحاً فى مساعى الإنجليز كرد فعل للنشاط الفرنسى على التفاهم مع "على بك الكبير" وعقد اتفاقية معه سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٣م ، ثم عقد اتفاقية أخرى سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٥م مع "محمد بك أبو الذهب" الذى خلف على بك فى الولاية على مصر لتأمين وصول تجارتها من الهند إلى مرفأ السويس عبر البحر الأحمر.

---

(١) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص٢٦ .

(٢) د. فائق حمدى طهبوب : تاريخ البحرين السياسى ، ص٨٧ . ، خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ١ ، ص٣٨ . ولعل فى ذلك وغيره رد على اتجاهات بعض كتبة التاريخ الذين يحاولون تصوير العلاقة بين الدولة العثمانية والدعوة السلفية بالعداء الشديد ، وكذلك تصوير الحركة السلفية فى إطار يقظة قومية .

وإذا كانت الظروف قد دعت إلى تعطل العمل بهاتين الاتفاقيتين وزيادة حجم النشاط الفرنسى بشئون البحر الحمر فإن ذلك قد أثار تحفز بريطانيا وهو أمر بدا واضحاً فى تعقب القوات البريطانية للحملة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ ١٧٩٨م ، والتى كان من أهم أهدافها ضرب المصالح البريطانية من خلال السيطرة على هذا الطريق ، وكذلك فى سعيها لعقد اتفاقية مع سلطان الحج سنة ١٢١٧هت ١٨٠٢م بشأن منحها تسهيلات فى ميناء عدن المدخل الجنوبى لهذا البحر (١) .

ولا شك أن المنهج الإسلامى الواضح الذى ميّز أتباع الدعوة السلفية والذى فرض عليهم أن يسلكوا سياسة عدائية ضد النفوذ الاستعمارى قد جعل بريطانيا تستبعد إمكانية التفاهم معهم ، ولهذا - ولعوامل أخرى سنوضحها - فإن الرغبة فى ضرب هذه القوة كان يهم الإنجليز قبل غيرهم من القوى وبخاصة الدولة العثمانية من جهة ، ويحدد كذلك طبيعة الدور الذى لعبه " محمد على " فى المنطقة من جهة أخرى (٢) .

ومع ذلك فإن الدولة العثمانية لم تجد فى دور الدولة السعودية ما يحفزها على إعلان الحرب عليها وبخاصة أن الداعية " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " وأتباعه لم يثبت عنهم أنهم دعوا إلى الخروج عن طاعة الخليفة ودولة الخلافة أو التشكيك فى شرعيتها (٣)

---

(١)د.فاروق أباظه:عدن والسياسةالبريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨، ص٧٣ .

(٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ، ص٢٦ ، وتتوافق الوثائق التى تشير إلى الرسائل المتبادلة بين محمد على والباب العالى فى التعبير عن مدى طاعة محمد على للسلطان وإن كانت لا تحدد تفسيراً المحاولات محمد على فى نجد وساحل الخليج وتطلعاته فى اليمن والتى أعقب انسحابه منها ودخول البريطانيين فيها ، أنظر مجموعة الوثائق الخاصة بشبه الجزيرة العربية فى عصر محمد على . د . عبد الرحيم عبد الرحمن .

(٣) أحمد فهد بركات الشوابكة : الجامعة الإسلامية ، ص١٧ . ، أشار يوسف كنج والى دمشق فى رسالة منه إلى محمد على بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يجسد السلطان على خلافته للمسلمين ونادى بنفسه خليفة شرعى ، وجاء هذا فى إطار تحفيزه على عمل عسكرى ضد الدعوة السلفية بعد أن خشى تهديدها له فى الشام فى حين لم يثبت ذلك على أى من أتباع هذه الدعوة . وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث - تعليق د . عبد العزيز نوار - بيروت سنة ١٩٧٤ ، ص١٨٤ .

ولم يعرف عنه دعوته لنفسه بهذا الأمر، وقد أكد ذلك فى إحدى رسائله حيث قال : " لا أكفر أحداً من المسلمين بذنب ولا أخرجه من دائرة الإسلام ، وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام براً كان أو فاجراً ، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين ما لم يؤمر بمعصية ومن ولّى الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وجبت طاعته " (١) .

وكان من الممكن امام ذلك أن تعتبر الدولة العثمانية أتباع دعوة التوحيد السلفية إمارة أو قوة تابعة لها لو لا أن أتباع الدعوة السلفية أقدموا على التصدى للمظاهر الخارجة عن الشريعة الإسلامية التى كانت تصحب وفود الحجيج من مصر والشام والدولة العثمانية ، وهو أمر كان يمثل ضروريات الإلتزام بمنهج الدعوة (٢) ، إلى جانب إغلاقهم لزوايا الدراويش الصوفية الموجودة فى مكة والمدينة التى إزدادت منذ بداية العصر العثمانى ، وهو أمر أوحى بإنهائهم للنفوذ العثمانى المساند لهذه المظاهر والذى لم يكن يعنى النفوذ السياسى العثمانى كما سبق التوضيح (٣) .

ومع ذلك فإن الموقف المهاجم من قبل الدولة العثمانية للدولة السعودية قد اقتصر على سعيها لعودة نفوذها السياسى على منطقة الحجاز ثم بعد ذلك الإحساء وكانت مهاجمتها لمنهج دعوة التوحيد لا تعدو أن تكون مبرراً لهذا الأمر (٤) .

على أن موقف الشريف غالب شريف مكة قد ساعد الدولة العثمانية فى موقفها المعادى للسعوديين حيث رأى فى سيطرة السعوديين على الحجاز تهديداً لمركزه السياسى

---

(١) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص١٧ .
(٢) محمد أديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى ص١٠٩ .
(٣) برنارد لويس : المرجع السابق ص١٥٣ . ولاتتفق مع ما أورده حول اتهام السعوديين للسلطان العثمانى باغتصاب السلطة وأن الهجوم قد اقتصر على مسائل شرعية ، كما لاتتفق مع جورج أنطونيوس فى نفس الاتجاه أنظر : جورج أنطونيوس : اليقظة العربية ص٨٣ .
(٤) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١٦ .

والاقتصادى بشكل لم يكن يسمح له بالتصرف الكامل . كما كانت عادة الأشراف . فيما يفد إليه باسم فقراء مكة والمدينة من أوقاف وصدقات وهبات وعطايا . والذى كان الأشراف يستأثرون بنصيب كبير منه لأنفسهم (١) . وعلى الرغم من تأمين االسعوديين له على مركزه السياسى حيث أبقوه فى منصبه فى أعقاب دخولهم مكة سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م مقابل التزامه بتنفيذ مبادىء الدعوة إلا أن حرصه على مكانته الاقتصادية المرتبطة بنفوذه السياسى قد دعاه لإضمار العداء لهم ، ومن هنا فإن عداءه للدعوة السلفية كان من منطلق مصلحى وليس موقفاً تمليه المبادىء (٢) .

ويعد موقف الإنجليز العدائى من هذه الدعوة هو الموقف الرئيسى ، فلم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تصطدم مع الدولة السعودية صداماً عسكرياً مباشراً وذلك نظراً لما تحملته قواتها العسكرية فى الحرب مع روسيا . ثم محاولتها الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية التى قادها " نابليون بونابرت " سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٨م تلك الحملة التى أكدت عجز القوات االعثمانية وضعفها عن القيام بمهمة الدفاع عن الأراضى التابعة لها . كما أن هذه الحملة قد أثارت فى نفس الوقت شعور المسلمين فى المنطقة ضد الفرنسيين والأوربيين بصفة عامة، مما وضع إحتمال تجمعهم حول القوة السعودية الجديدة .

على أن ما ينبغى ملاحظته هو أن قيام قوات "محمد على" - ولا نقول القوات المصرية - بمهاجمة الدولة السعودية لم يكن امتثالاً منه لطلبات أو أوامر الدولة

(١) إبراهيم محمد الصبحى : الحجاز فى القرن التاسع عشر - رسالة ماجستير غير منشورة ص١٠٣ .
(٢) محمد أديب غالب : المرجع السابق ص١٠٦ ، ١٠٧ . ، د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٣٩ . وقد التقى هذا البعد مع مصلحة العثمانيين الاقتصادية التى أصبحت غالبة على البعد الدينى وتستعمله لهذه المصلحة وبالطبع كانت علاقة العثمانيين مع الإنجليز ومع محمد على كلها علاقات تحكمها المصالح الاقتصادية .

العثمانية[١] ، تلك الطلبات أو الأوامر التى مارس الإنجليز ضغوطاً شديدة على السلطات العثمانية فى سبيل إصدارها وبخاصة بعد تحسن العلاقات الإنجليزية العثمانية منذ سنة ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م[٢] ، والتى اتخذ منها " محمد على" وحلفاؤه البريطانيون ذريعة لتدخلهم وستاراً لطبيعة الدور الذى لعبوه فى المنطقة ، حيث كان تعبيراً عن توافق أطماع "محمد على" وسياسته مع أبعاد السياسة الاستعمارية فى المنطقة العربية وبخاصة مع الإنجليز[٣] فكان الإنجليز أول من هنأوا " إبراهيم باشا " بسقوط الدرعية [٤] ، كما أنها أى انجلترا كانت تخشى من تكوين وحدة سياسية إسلامية كبيرة فى المنطقة وهذا ما يبدو فى رسالة الحاكم البريطانى فى الهند إلى " إبراهيم باشا " والتى هنأه فيها على القضاء على الدولة السعودية حيث ذكر " أن الهزيمة والانهيار الكامل لدولة ما بعد ارتفاع غير عادى إلى درجة السمو مما أدعى للسرور أن تنفردوا فخامتكم بإخضاعها"[٥] .

كما أن الرسائل المتبادلة بين الجانبين تؤكد وجود تنسيق بينهما . ولعل أهم الدلالات التى تؤكد ذلك توافق سقوط الدرعية فى يد"إبراهيم باشا" سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م مع سقوط رأس الخيمة مقر قوة القواسم المتحالفة مع السعوديين فى يد الإنجليز سنة

---

(١) يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى أن محمد على كان يرتاب فى نوايا الباب العالى تجاهه فى طلبهم محاربته للدعوة السلفية وكان لايزال متأثراً بحادث نقله إلى سالونيك ولهذا تعلل كثيراً فى عدم الإقدام على مهاجمة الجزيرة العربية . جـ٢ ص٩٩٠ ، ٩٩١ . وقد طلب محمد على تأمينه فى حالة هجوم أى دولة أجنبية على مصر فى غياب جنده ، ولم يكن بوسع الباب العالى طمأنته على ذلك وهو أمر يؤكد أنه لم يخرج جنده إلا بعد أن إطمان بنفسه من الإنجليز .

(٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ، ص٢٨ .

(٣) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ، ص٨٣ . ولا يستبعد مساندة الفرنسيين لمؤامرة جمعت بين سليمان باشا والى الشام والمماليك فى مصر ضد محمد على وحلفاؤه الإنجليز ومحاولة محمد على التستر بكسب ود الباب العالى بهذه الحملة . د. عبد العزيز نوار: الوثائق السياسية ، ص١٩٥ .

(٤) د . بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ، ص١٩٨ .

(٥) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ الحرب الحديث ، ص١٨٩ .

١٢٣٤هـ / ١٨١٩م [١] .. وقد أرسل الحاكم العام الإنجليزى فى الهند إلى " إبراهيم باشا " يهنئه على نجاحه فى القضاء على الدولة السعودية ، وعبر القنصل البريطانى فى القاهرة عن فرح بلاده لانهيار الدولة السعودية . أما "فرنسيس واردن " فقد عبر عن كره المسئولين البريطانيين للدولة السلفية فكتب يقول : " هكذا قامت وهكذا سقطت ويا ليتها لا تقوم مرة أخرى طائفة الوهابية تلك الطائفة الشاذة التى حمت وشجعت القرصنة البحرية فى الخليج والبحار الهندية بكل جرأة وبربرية" [٢] .

أما الدعوة السنوسية فى برقة فقد ارتبط قيامها ودورها فى البداية بعوامل محلية تتمثل فيما شاب المجتمع من شوائب أكدت الابتعاد عن الشريعة الإسلامية لدرجة دعت بعض البدو لإقامة " كعبة " فى الجبل الأخضر على غرار البيت الحرام فى مكة المكرمة ، وطالبوا الناس بالحج إليها ، فضلاً عن بعض العادات التى كانت تشير إلى ضعف الالتزام بالتعاليم الإسلامية كوأد البنات وعدم صوم شهر رمضان وغير ذلك من الظواهر التى لعبت الظروف الاقتصادية فيها دوراً واضحاً والتى دعت إلى ضرورة وجود دعوة للعودة للمنهج الإسلامى الصحيح كالتى قام بها السنوسى [٣] .

وعلى الرغم من ارتباط دور السنوسية بعوامل أخرى خارجية تتمثل فى الهجوم الاستعمارى الفرنسى على الجزائر، بل ربما كانت فى رأى البعض رد فعل مباشر له [٤]

---

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ، ص١٩٧ . ، وقد أثار تحالف محمد على مع الإنجليز مخاوف الدولة العثمانية فى هذه المرحلة فكتب السلطان العثمانى إلى محمد على يقول : " إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الإنجليز إذ ليس قصدهم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم ـ كما هو مبين فى المذكرة التى قدمها سفير فرنسا ـ هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات " وثائق عابدين ـ وثيقة رقم ٢٧ محفظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥هـ .

(٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ، ص٢٧٠ - ٢٧٢ .

(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص١٥٩

(٤) أنور الجندى : المرجع السابق ، ص٦٧ .

إلا أن ذلك الدور لم يصطدم مع دور دولة الخلافة العثمانية فى محاولة مقاومة الهجوم الاستعمارى الغربى على المنطقة العربية بشكل عام ومنطقة البحر المتوسط بشكل خاص بل كانت فى أغلب المراحل تأييداً له . ومع ذلك فقد تأثر صاحب الدعوة السنوسية بسقوط الجزائر، فاتهم الدولة العثمانية بالتقصير فى حماية الأقطار الإسلامية ، ورأى أنها فى طريقها إلى التدهور، وأن من أهم الظواهر التى دعته إلى ذلك هو سيادة العناصر التركية واستبعاد العناصر العربية مما يشير إلى تسرب بعض الأفكار القومية . ووضع تصوراً لما ينبغى أن تكون عليه الخلافة الإسلامية فى حالة سقوط الخلافة التركية فرأى أن يكون الخليفة من قريش ومن سلالة النبى (صلى الله عليه وسلم)(١) .

ومع ذلك أكد صاحب الدعوة السنوسية على ضرورة الارتباط وإظهار الولاء لدولة الخلافة العثمانية ولخليفة المسلمين فيها ، ورأى أن معاداتها أو الخروج عليها أمر خاطىء وغير واجب . ولم يكن ذلك نابعاً من خشية السنوسيين من الصدام مع العثمانيين كما حدث مع الدعوة السلفية كما يرى البعض حيث رفض السنوسيون الاستقلال عن دولة الخلافة فى أعقاب دخول الإيطاليين إلى طرابلس سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١١م ، كما أنهم لم يبدوا حرصاً على ذلك بعد استكمال قوتهم فى مراحل تالية (٢) .

وتولى السنوسيون تحصيل الضرائب للدولة العثمانية ، وأكد دعاتها دوام ولائهم للسلطان العثمانى ، كما منحهم السلاطين إعفاء لأملاكهم من الضرائب ، وأيدوا دورهم فى التوسع لنشر الإسلام داخل القارة الإفريقية ، وكذلك فى دعم حركة المقاومة ضد الدول الأوربية فى البحر المتوسط .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٨٤ .
(٢) المرجع السابق ص١٨٤ .

وقد أثار دور السنوسية الدول الأوربية التى خشيت على مصالحها الاقتصادية فى إفريقيا التى سعت لإثارة السلطان "عبد الحميد الثانى" عليها مما دعا السلطان لإرسال وفد للوقوف على أحوال السنوسية وقوتها (١) ، لكن ذلك لم يؤد إلى إنتهاء علاقة الود والتفاهم ، بل إن السنوسية قد دعت إلى دعم سياسة عبد الحميد الإسلامية ، وأعلنت معارضتها لدعاة الاتجاه القومى فى تركيا ، واستنكر السنوسيون ما أقدم عليه الاتحاديون من خلع السلطان "عبد الحميد" .

وفى أعقاب الحرب الطرابلسية سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١١م والتى احتلت بعده إيطاليا ليبيا وانسحاب القوات العثمانية أبدى السنوسيون اعتراضهم على انسحاب هذه القوات ، كما رفضوا قبول الاستقلال الذى منحه لهم السلطان العثمانى ، ورفضوا كذلك قبول الدولة للصلح مع الإيطاليين (٢) .

أما عن الدعوة المهدية فى السودان فتختلف ظروفها عن ظروف الدعوتين السابقتين ، فالسودان لم يرتبط بدولة الخلافة العثمانية بشكل مباشر وإنما تعرض لاستعمار كان دافعه أطماع "محمد على" حاكم مصر، ثم تعرض لاستعمار إنجليزى بعد وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجليزى سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ، ولذلك فإن الدعوة المهدية تعد فى الغالب حركة وطنية محلية بدت فى قالب إسلامى دينى لاستنادها إلى الطرق الصوفية ، كما أن هذه الدعوة قد حظيت فى البداية بمساندة - غير مباشرة - من السلطات البريطانية ، حيث رأت بريطانيا فيها سبيلاً يساعدها على التدخل فى شئون السودان واحتلاله بعد ثبوت عجز القوات التابعة لحاكم مصر ، وكان ذلك يسهم فى دعم نفوذ

(١) تولت الدعوة جمع المال المستحق من الأهالى للدولة كى تبدو فى صورة قريبة من دولة الخلافة الأمر الذى يشير إلى أهمية البعد الاقتصادى سواء فى موقف الدولة العثمانية أم فى موقف الدعوة نفسها .
(٢) المرجع السابق ص١٨٨ .

بريطانيا فى منطقة القرن الإفريقى، وكذلك فإن دعوة المهدى بضرورة انتقال الخلافة إلى مكة المكرمة ونزعها من الأتراك ، يوافق أهداف الإنجليز فى المنطقة . وقد أثار الإنجليز محاولة السلطان عبد الحميد التوفيق بين الدعوة المهدية والدعوة السنوسية للحفاظ على الوجود الإسلامى ومحاولة انتشاره داخل القارة الإفريقية ، ولهذا ساند الإنجليز نزعة المهدى العدائية ضد الخلافة العثمانية فى البداية ، ثم نجحوا فى القضاء عليه خشية إنتشار الروح الإسلامية فى النهاية (١) .

(١) أحمد الشوابكة : المرجع السابق ص١٩ .